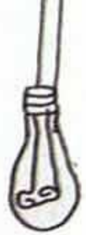
صديقي جميل!



قصة: حليم نسيب نصر
رسوم وتصميم: منى يقظان

دار النهضة العربية
أصالة للنشر والتوزيع – طبعة أولى 2011
ISBN: 978-614-402-397-6
تلفون: 093 736 1 961+
فاكس: 071 736 1 961+
ص.ب.: 11/3434
الزيدانية، بناية كريدية – بيروت، لبنان
infos@asala-publishers.com

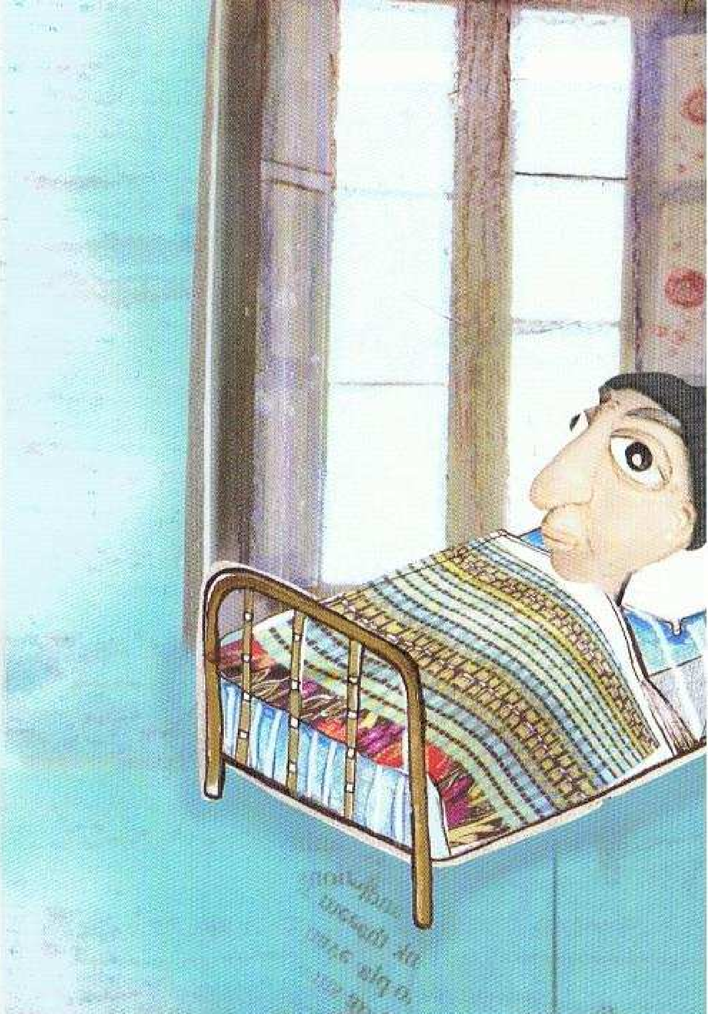


صديقي جميل!

قصة: حليم نسيب نصر
(محامٍ وقاضٍ من لبنان)

رسوم وتصميم: منى يقظان





في الجَناحِ المُخَصَّصِ لِلْعَجَزَةِ الذُّكورِ مِنْ مُسْتَشْفى دارِ العَجَزَةِ الإِسْلامِيَّةِ في بَيْروتَ، وَفي غُرْفَةٍ تَحْتَوي على سَريرَيْنِ اِثْنَيْنِ، اِسْتَلْقى كُلٌّ مِنْ أَحْمَدَ وَجَميلٍ عَلَى سَريرِهِ المُخَصَّصِ لَهُ. لَقَدْ وَقَعَ نَصيبُ جَميلٍ على السَّريرِ المُحاذي لِشُبّاكِ الغُرْفَةِ الوَحيدِ، بَيْنَما بَقِيَ السَّريرُ الآخَرُ المَوْجودُ في زاوِيَةِ الغُرْفَةِ البَعيدَةِ لِزَميلِهِ أَحْمَدَ.

كانَ المَريضَانِ عَجوزَيْنِ مُسِنَّيْنِ لا عائِلَةَ مُباشِرَةً لِأيٍّ مِنْهُما، وكانَ أَحْمَدُ يَشْكو مِنْ كِسْرٍ لَمْ يَلْتَئِمْ بَعْدُ تَماماً في وِرْكِهِ. لِذلِكَ، فَقَدْ كانَ عَلَيْهِ البَقاءُ عَلى الدَّوامِ مُمَدَّداً عَلَى ظَهْرِهِ في سَريرِهِ بِناءً على تَعْليماتِ الطَّبيبِ. أمَّا جَميلٌ الّذي كانَ يَشْكو من الْتِهابِ غِشاءِ الرِّئَتَيْنِ، فَقَدْ طَلَبَ الأَطِبّاءُ مِنْهُ الجُلوسَ على سَريرِهِ ساعَةً في كُلِّ يَوْمٍ لِتَسْهيلِ تَصْريفِ السَّوائِلِ المُحْتَقَنَةِ، عَنْ صَدْرِهِ.

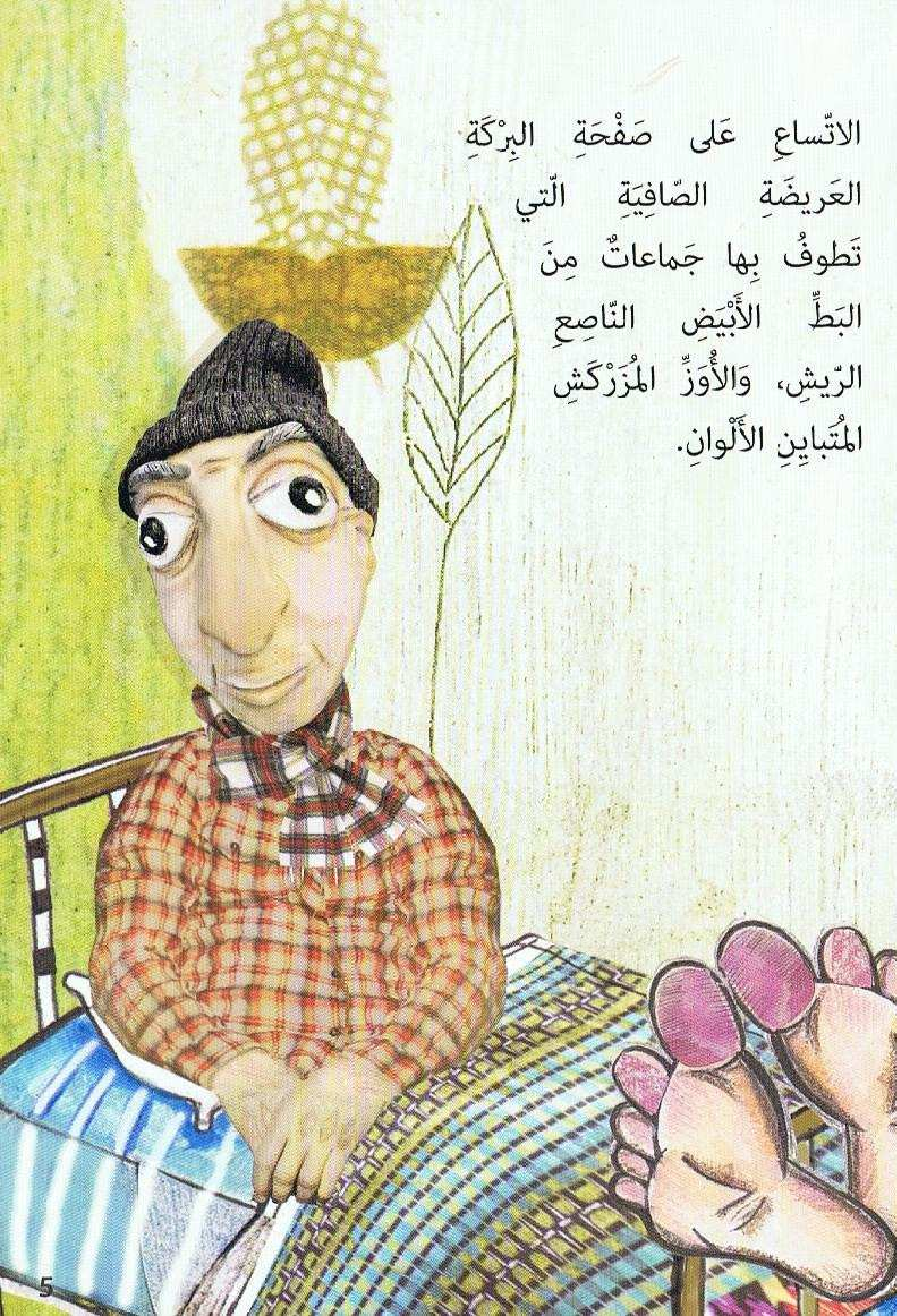


وَحَيْثُ أَنَّ أَحْمَدَ كانَ يَعْتَبِرُ نَفْسَهُ مَحْروماً مِنْ إِمْكانِيَّةِ رُؤْيَةِ الدُّنْيا الواقِعَةِ خارِجَ الشُّبّاكِ بِسَبَبِ بُعْدِ سَريرِهِ عَنْهُ، فَقَدْ كانَ يَطْلُبُ مِنْ زَميلِهِ جَميلٍ أَنْ يَصِفَ لَهُ كُلَّ مُشاهَداتِهِ في الخارِجِ، بَيْنَما هُوَ يَسْتَمْتِعُ بِساعَةِ الجُلوسِ اليَوْمِيَّةِ. وَيَبْدو أَنَّ جَميلاً قَدْ أَسْعَدَهُ أَنْ يَنْزِلَ عِنْدَ طَلَبِ زَميلِهِ وَمُؤْنِسِهِ الوَحيدِ، فَأَخَذَ في كُلِّ يَوْمٍ يُخَصِّصُ ساعَةَ جُلوسِهِ تِلْك، دَقيقَةً بِدَقيقَةٍ، لِيَصِفَ لِزَميلِهِ أَحْمَدَ ما يَدورُ خارِجَ زُجاجِ شُبّاكِهِما الوَحيدِ المَفْتوحِ عَلَى العالَمِ.

سَعِدَ أَحْمَدُ كَثيراً بِوَصْفِ صَديقِهِ هذا حَتّى إِنَّهُ صارَ يَنْتَظِرُ تِلْكَ السّاعَةَ اليَوْمِيَّةَ بَعْدَ كُلِّ ظَهيرَةٍ، بِفارِغِ الصَّبْرِ. كَيْفَ لا وَهُوَ يَسْمَعُ صَديقَهُ يَصِفُ لَهُ الحَديقَةَ العامَّةَ الفَسيحَةَ الخَضْراءَ الواقِعَةَ خارِجَ الشُّبّاكِ! وكَيْفَ أَنَّهُ تَقَعُ في وَسَطِها بِرْكَةٌ واسِعَةٌ زَرْقاءُ صافِيَةٌ، تَتَوَسَّطُها نافورَةٌ تَدْفَعُ المِياهَ النَّقِيَّةَ في الفَضاءِ إلى مَسافاتٍ عالِيَةٍ لِتَلْتَمِعَ كَالفِضَّةِ تَحْتَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ المُشْرِقَةِ مِنْ وَسَطِ السَّماءِ الزَّرْقاءِ الفَسيحَةِ، ثُمّ لِتَنْثالَ بَعْدَ ذَلِكَ في رُشاشٍ مُتَناثِرٍ تَناثُرَ الدُّرَرِ واللآلِىءِ وَهِيَ تَتَزَيَّنُ بِأَلْفِ لَوْنٍ وَلَوْنٍ مِنْ أَلْوانِ قَوْسِ قُزَحَ الرّائِعَةِ، لِتَتَشَكَّلَ مِن وُقوعِها دَوائِرُ مُتَفاوِتَةٌ



الاتّساعِ عَلى صَفْحَةِ البِرْكَةِ
العَريضَةِ الصّافِيَةِ الّتي
تَطوفُ بِها جَماعاتٌ مِنَ
البَطِّ الأَبْيَضِ النّاصِعِ
الرّيشِ، وَالأُوَزِّ المُزَرْكَشِ
المُتَبايِنِ الأَلْوانِ.



هذا ما كانَ يَقولُهُ جَميلٌ، فَيُرْسِلُ أَحْمَدُ تَنْهيدَةً حارَّةً مِلْؤُها الشَّوْقُ والتَّلَهُّفُ لِرُؤْيَةِ الدُّنْيا. تَنْهيدَةٌ كانَتْ لا تَخْلو مِنْ بَعْضِ شُعورٍ بِالغَيْرَةِ وَالحَسَدِ مِنْ صَديقِهِ المُسْتَأْثِرِ دونَهُ بِشُبّاكِ الغُرْفَةِ، المُطِلِّ على الدُّنْيا الّتي يَراها مِنْها وَحْدَهُ. أَمّا هُوَ فَلا حَظَّ لَهُ سِوى الاكْتِفاءِ بِالاسْتِماعِ إلى الوَصْفِ. لَكِنَّهُ، وَالحَقُّ يُقالُ، وَصْفٌ جَميلٌ لا يَمَلُّ مِنْهُ ولا يَرْتَوي. وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُ كانَ لا يَتَوَرَّعُ عَنْ طَلَبِ المَزيدِ مِنْهُ.





أَمّا الأَطْفالُ الصِّغارُ، الذينَ أَراهُمْ، مِنْ بَنينَ وَبَناتٍ، يُكْمِلُ جَميلٌ، فها هُمْ يَجْتَمِعونَ وَيَتَفَرَّقونَ في بَهْجَةٍ وَحُبورٍ حَوْلَ حَوافِّ البِرْكَةِ، يَنْثُرونَ فُتاتَ الكَعْكِ، وَحُبوبَ السُّكَّرِ، لِفِراخِ البَطِّ وَالأُوَزِّ الّتي تَتَسابَقُ لِالْتِقاطِها بِلَذَّةٍ وَسُرْعَةٍ.

«يا لَحَظِّكَ السَّعيدِ بِرُؤْيَةِ الدُّنْيا!»
يَقولُ أَحْمَدُ.





إذَنْ، لا تَسَلْني عَنِ الأَشْجارِ الخَضْراءِ الوارِفَةِ الظِّلالِ. يَرُدُّ عَلَيْهِ جَميلٌ. تِلْكَ الأَشْجارُ الّتي فيها الصَّنَوْبَرُ الّذي يُشَكِّلُ غابَةً صَغيرَةً جَميلَةً تَفْتَرِشُ ظِلالَهَا العائِلاتُ السَّعيدَةُ وَهِيَ تَتَناوَلُ طَعامَها الشَّهِيَّ! هذا عَداكَ عَمّا أَراهُ مِنْ أَشْجارِ سَرْوٍ تُحيطُ بِسورِ الحَديقَةِ إِحاطَةَ الإِسْوارِ بِالْمِعْصَمِ. هذا إلى جانِبِ أَشْجارِ الكينا الضَّخْمَةِ الجُذوعِ والأَغْصانِ، الضّارِبَةِ دَوْحاتُها عُلُوّاً في أَجْوازِ الفَضاءِ حَيْثُ باتَتْ مَكاناً لِأَعْشاشِ العَصافيرِ الغَرِّيدَةِ المُزَقْزِقَةِ وَمَحَطّاً لِأَسْرابِ الحَمائِمِ الّتي اخْتَلَفَتْ أَلْوانُها من الأَبْيَضِ إلى البُنِّيِّ الفاتِحِ إلى الرِّزِّيِّ اللَّوْنِ. إلى أَشْجارِ الحورِ الّتي لها سيقانٌ شامِخَةٌ بِلَوْنِ الحَليبِ وَأَوْراقٌ خَضْراءُ وَفِضِّيَّةٌ لا تَنْفَكُّ تَتَلأْلأُ وَتُخَشْخِشُ في الفَضاءِ المُرْتَفِعِ





تَحْتَ نورِ الشَّمْسِ ولا تَسَلْ عنْ سائِرِ الأَشْجارِ البُسْتانِيَّةِ الأُخْرى الدّانِيَةِ القُطوفِ بِكُلِّ ما لَذَّ وطابَ من ثَمراتٍ مُوَرَّدَةِ الخُدودِ، طَيِّبَةِ المَذاقِ، رائِعَةِ الشَّميمِ.

وَهَكَذا امْتَدَّتِ الأَيّامُ، وَالحِكاياتُ بَيْنَ الصَّديقَيْنِ لا تَنْتَهي عَنِ المُشاهَداتِ الشَّيِّقَةِ الّتي يَقومُ جَميلٌ بِوَصْفِها على مَسامِعِ أَحْمَدَ، حَتّى بَدَتْ هَذِهِ الحَديقَةُ لِلْأخيرِ أَشْبَهَ ما تكونُ بِقِطْعَةٍ مِنْ جَنَّةِ النَّعيمِ وَقَدْ تَجَسَّدَتْ عَلى الأَرْضِ.

وفي كُلِّ يَوْمٍ كانَ يُولَدُ في هذِهِ الحَديقَةِ **عَشَراتٌ مِنْ قِصَصِ الحُبِّ الجَميلَةِ.** فَكُلُّ حَبيبٍ يَشْبُكُ يَدَهُ بِيَدِ حَبيبَتِهِ.





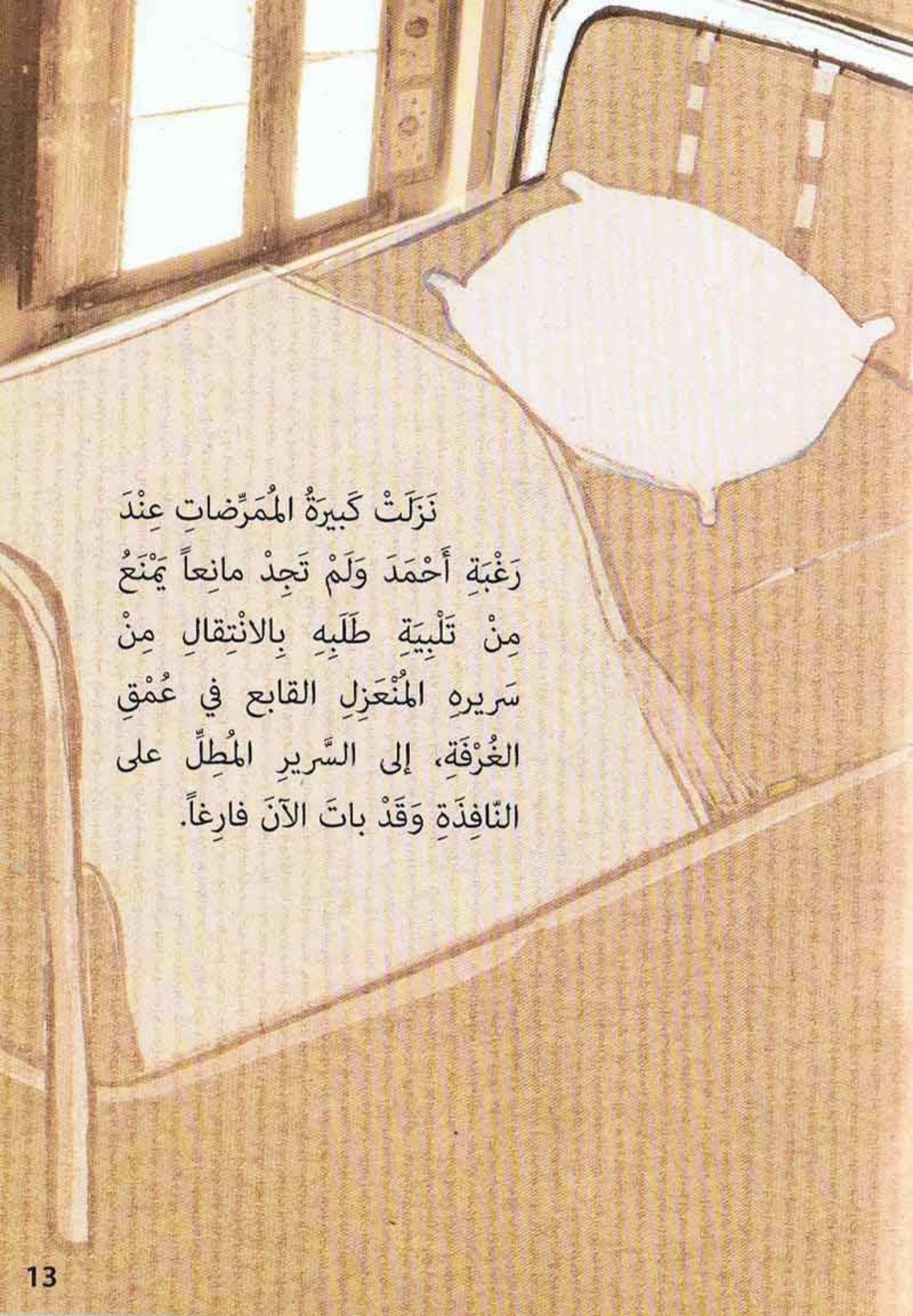
وَمَرَّتْ أَيّامٌ عَديدَةٌ ، وَأَسابِيعُ أُخْرى،

وجَميلٌ الجالِسُ في سَريرِهِ يُتابِعُ وَصْفَ الدُّنْيا المَعْروضَةِ
عَلَى مَسْرَحِ الخارِجِ، وَأَحْمَدُ المُسْتَلْقي على ظَهْرِهِ
وَالْمُتَطَلِّعُ أَبَداً إلى السَّقْفِ يَسْمَعُ وَيَسْتَمْتِعُ وَيَتَخَيَّلُ.

صَباحَ ذاتِ يَوْمٍ اِسْتفاقَ فيه أَحْمَدُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ زَميلُهُ جَميلٌ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ التَّحِيَّةَ لِأَنَّ الرّوحَ كانَتْ قَدْ فارَقَتْ جَسَدَهُ أَثْناءِ النَّوْمِ. فَإذا بِالجَسَدِ الّذي باتَ جِثَّةً هامِدَةً لا حِراكَ فيها، يُنْقَلُ مِنْ دونِ إِبْطاءٍ إلى جَناحِ تَجْهيزِ المَوْتى. وَيَغْدو السَّريرُ المُلاصِقُ لِلنّافِذَةِ خالِياً سِوى مِنْ مَفارِشَ بَيْضاءَ جَديدَةٍ تَنْتَظِرُ قُدومَ مَريضٍ جَديدٍ.

تَرَحَّمَ أَحْمَدُ على صَديقِهِ الرّاحِلِ الأَثيرِ جَميلٍ طالِباً لَهُ الرَّحْمَةَ وَراحَةَ النَّفْسِ في جَنَّةِ الرَّحْمنِ. لَكِنَّهُ اسْتَجْمَعَ نَفْسَهُ المُشَتَّتَةَ على فِراقِ صَديقِهِ الوَحيدِ وَاعْتَصَمَ بِالصَّبْرِ وَالْإيمانِ، وَرَأى أَنَّ لا شَيْءَ يُمْكِنُ لَهُ أَنْ يُعَوِّضَهُ عَنْ وَصْفِ صَديقِهِ اليَوْمِيِّ لِأَحْداثِ الحَياةِ المُتَبَدِّلَةِ في الحَديقَةِ المُجاوِرَةِ سِوى أَنْ يُحاوِلَ رُؤْيَتَها مُنْذُ الآنَ بِنَفْسِهِ رُؤْيَةَ العَيانِ، رُؤْيَةً لا بُدَّ لهَا مِنْ أنْ تُغْنِيَهُ عَنِ الاكْتِفاءِ بِالاسْتِماعِ إلى الوَصْفِ.

لِذَلِكَ، فَإِنَّه اسْتَجْمَعَ شَجاعَتَهُ طالِباً مِنَ المُمَرِّضَةِ نَقْلَهُ إلى السَّريرِ القَريبِ مِنَ النّافِذَةِ.



نَزَلَتْ كَبيرَةُ المُمَرِّضاتِ عِنْدَ
رَغْبَةِ أَحْمَدَ وَلَمْ تَجِدْ مانِعاً يَمْنَعُ
مِنْ تَلْبِيَةِ طَلَبِهِ بِالانْتِقالِ مِنْ
سَريرِهِ المُنْعَزِلِ القابع في عُمْقِ
الغُرْفَةِ، إلى السَّريرِ المُطِلِّ على
النّافِذَةِ وَقَدْ باتَ الآنَ فارِغاً.

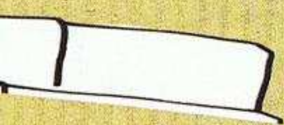


وَرَغْمَ حُزْنِ أَحْمَدَ الصّادِقِ لِوَفاةِ صَديقِهِ إلّا أَنَّهُ لم يَسْتَطِعْ إِخْفاءَ فَرَحِهِ بِالانْتِقالِ إلى السَّريرِ الجَديدِ. لِذَلِكَ، ما أَنْ أَطَلَّ عَلَيْهِ النَّهارُ الجَديدُ الأَوَّلُ في هذا السَّريرِ حَتّى جاهَدَ نَفْسَهُ لِكَيْ يَنْهَضَ وَيَرَى شَيْئاً مِنَ الحَديقَةِ، لَكِنْ لِدَهْشَتِهِ الشَّديدَةِ: لَمْ يَرَ شَيْئاً سِوى جِدارٍ كَبيرٍ مَسْدودٍ لا يَبْعُدُ عن حافَّةِ الشُّبّاكِ سِوى مَسافَةِ أَمْتارٍ قَليلَةٍ خالِيَةٍ إلّا مِنَ الإِسْمِنْتِ الشّاحِبِ.

تَوَلّاهُ العَجَبُ حتّى خَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أَنْ يَكونَ قَدْ خَوْلَطَ في عَقْلِهِ. وما إِنْ دَخَلَتْ عَلَيْهِ المُمَرِّضَةُ، حتّى ابْتَدَرَها بالسُّؤالِ عَنِ الحَديقَةِ البَهيجَةِ الّتي كانَ يُحَدِّثُهُ بِها جارُهُ المَرْحومُ جَميلٌ وَعَمّا فيها مِنْ فِتْنَةٍ وَبَهْجَةٍ وَجَمالٍ وَحَرَكَةٍ. إلّا أَنَّ المُمَرِّضَةَ اسْتَغْرَبَتْ كُلَّ هذِهِ الرِّوايَةِ، خاصَّةً وَأَنَّها تَعْلَمُ أَنَّ المَرْحومَ جَميلاً كانَ شَخْصاً ضَريراً عَرَفَتْهُ فاقِداً لِلْبَصَرِ مُنْذُ اليَوْمِ الأَوَّلِ لِدُخولِهِ إلى المُسْتَشْفى.



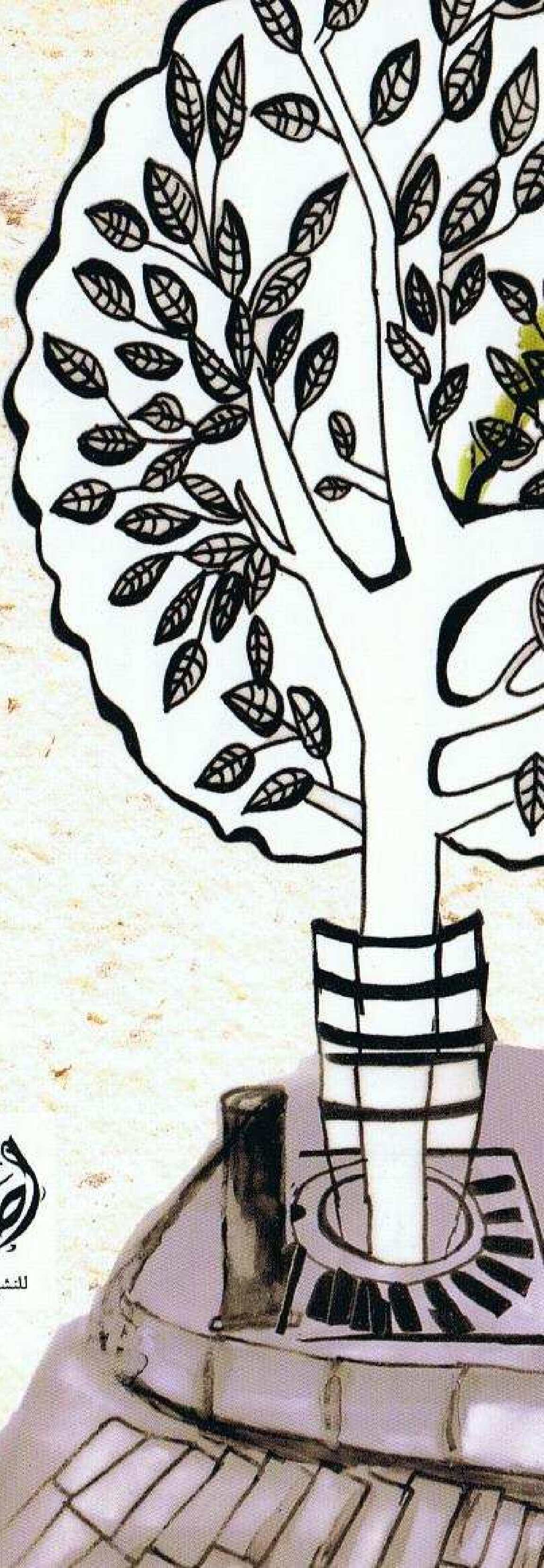
لَقَدْ أَدْرَكَ أَحْمَدُ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَنَّ
صَديقَهُ الرّاحِلَ جَميلاً الّذي
كانَ مَحْروماً مِنْ نِعْمَةِ
الإِبْصارِ إِنَّما كانَ يَأْتي
بِهَذهِ الحِكاياتِ وَالأَوْصافِ



الجَميلَةِ مِنْ خَيالِهِ قاصِداً بِذَلِكَ إلى تَسْلِيَتِهِ وَرَفْعِ مَعْنَوِيّاتِهِ وَالتَّرْويحِ عَنْهُ بَدَلَ أَنْ يُمْضِيَ الوَقْتَ بِالشَّكْوى لَهُ مِن العَمَى والمَرَضِ وَالْوَجَعِ، حَتّى أَنَّهُ أَخْفى حَقيقَةَ فَقْدِهِ لِلنَّظَرِ عَنْ جارِهِ الوَحيدِ لِأَنَّهُ يَعْتَبِرُ أَنَّ الشَّكْوى لِلْآخَرينَ مَذَلَّةٌ لا نَفْعَ فِيها ولا يَأْتي مِنْها سِوى الإِثْقالِ عَلَيْهِمْ وَدَفْعِهِمْ إِلى الضَّجَرِ.

لَقَدْ أَدْرَكَ أَحْمَدُ الآنَ كَمْ هُوَ عَظيمٌ وَرائِعٌ ذَلِكَ الصَّديقُ الّذي خَسِرَهُ، وَكَمْ أَنَّهُ جَميلُ النَّفْسِ خَفيفُ الظِّلِّ. شَكَرَ أَحْمَدُ الآنَ رَبَّهُ وَحَمَدَهُ عَلى نِعْمَةِ البَصَرِ، وعاهَدَ نَفْسَهُ أَنْ يَصْبِرَ عَلى الآلامِ وعَلى ظُروفِهِ الصِّحِّيَّةِ الّتي تَضْطَرُّهُ إلى التَّسَمُّرِ في الفِراشِ رَيْثَما يَلْتَئِمُ كَسْرُهُ وَتَتَرَمَّمُ عِظامُهُ فَيَسْتَطيعُ العَوْدَةَ إلى المَشْي وَالخُروجَ إلى الحَياةِ في يَوْمٍ ما، مِنْ جَديدٍ.





ISBN 614-402-397-6

9 786144 023976

Book # A 576

أصالة

للنشر والتوزيع